التغير المتطرف مراجعة لكتاب اناتول ليفين

(أمريكا أهي على حق أم باطل؟ تشريح القومية الأمريكية)

بريان اوركوهارت
ترجمة: إحسان عبد الهادي

كانت القومية، بكل أشكالها المختلفة من القومية المغالية ذات المشاعر النبيلة للإمبراطورية البريطانية إلى السم الخبيث للنازية، ولأكثر من قرنين، ظاهرة مألوفة، وفي أحوال كثيرة غير بناءة. برزت أولاً في أوروبا التي دمرتها تقريباً، ولكنها تعلمت السيطرة عليها الآن ولو ظاهرياً، ولا تزال تتفجر بين فترة وأخرى في أماكن أخرى من العالم.

تبدو كلمة (القومية) كأنها لا تلائم الولايات المتحدة حيث السعة القارية والقوة الهائلة. إن مشاعر النفور من فكرة (الإمبراطورية) تضبط عبر فكرة إن قيادة العالم ينبغي ان تتم بالقدوة الحسنة. لقد قام رئيسان أمريكيان، هما ودرو ويلسون وفرانكلين روزفلت، باقتراح إنشاء منظمات دولية كان هدفها الرئيس هو احتواء وتبديد عدوانية القوة القومية.ومع ذلك بدأ في السنين الأولى من القرن الحادي والعشرين انحراف دراماتيكي عن السياسة التقليدية، تمثل تصرفات أحادية الجانب، إذ بدأت قومية متشددة تسيطر على سياسات واشنطن ومواقفها نحو العالم الخارجي. لقد أعطت ردة الفعل على هجمات ١١ أيلول ٢٠٠١ قوة جديدة واتجاهاً جديداً لهذا التغيير. يفحص اناتول ليفين في كتابه (أمريكا أهي على حق ام باطل؟: تشريح القومية الأمريكية) جذور هذه النزعة الموجودة منذ أمد طويل التي اكتسبت تأييداً جماهيرياً لهذا التغيير الجوهري في سياسة الولايات المتحدة. وكما هو واضح من بعض ردود الأفعال على كتابه هذا، فإن هذا هو مشروع جريء، بل حتى متهور بالنسبة لأجنبي (فهو صحفي بريطاني يتخذ واشنطن مقراً له)، إضافة إلى كونه مفكراً اوروبياً. ولكن يمكن لمراقب من الخارج أن يقترب بصورة أفضل من هذا الموضوع الأمريكي الحساس بصدق وموضوعية بحثت مؤسسة (كارنيجي) عام ١٩٧٣ عن مدير لمشروع دراسة شاملة عن الزنوج في أمريكا. وتوصلت المؤسسة إلى القناعة بأن عالماً اجتماعياً أمريكياً سوف يجد من الصعوبة تولي مثل هذا المشروع الحساس بنزاهة وموضوعية، ولهذا طلبت المؤسسة من عالم الاقتصاد الاجتماعي السويدي كونار ميردال إدارة هذه الدراسة. الحصيلة كانت العمل الجليل "معضلة أمريكية". مثل ميردال، اختار ليفين موضوعه الجوهري التناقض بين القيم الأمريكية، وفي بعض الأحيان حقيقة واقع السياسة والمجتمع الأمريكي المغايرة، وقدم كتاباً استثنائياً مثيراً للتفكير وبصراحة قاسية. يقارن ليفين بين المثالية الرفيعة للقومية المدنية الأمريكية المتمثلة بـ(العقيدة الأمريكية): التحرر، التمسك بالمبادئ الدستورية، حكم القانون، الديمقراطية، الفردية، فصل الكنيسة عن الدولة، وواقع الاتجاهات الحالية المغالية في القومية التي تؤثر في كل من الشؤون المحلية والخارجية. يقول ليفين ان كتابه يجب أن لا يقرأ كأنه هجوم على القومية الأمريكية المعتدلة أو على الحرب ضد الإرهاب في هيئتها الأصلية وهي النضال ضد منظمة (القاعدة) وحلفائها. وسوف أحاول أن أبرهن عبر الكتاب على ان القومية المدنية الأمريكية هي دعامة رئيسة للقوة والنفوذ الأمريكي في العالم، وكذلك فإنها تحوي على دروس إيجابية ضخمة يمكن أن تقدمها للبشرية.

يؤكد ليفين بالدلائل والبراهين إنه لكون افكار الديمقراطية وحرية التجارة على النمط الأمريكي قد أصبحت الآن أفكاراً مقبولة أيديولوجيا في معظم أنحاء العالم، فإن أصبح منطقياً التزام الولايات المتحدة بأن "تتصرف كدولة مهيمنة مقاومة للتغيير، تصون النظام العالمي القائم وتنشر قيمها بالأمثولة الحسنة".

تحاول إدارة بوش، بدلاً من ذلك، التحرك بالاتجاه المعاكس، يكتب ليفين: "القوة الأمريكية في خدمة المصالح الوطنية الأمريكية الضيقة هي إلى حد بعيد أساس غير مستقر للهيمنة" وبصورة خاصة بعد ١١ أيلول، عندما كانت هناك فرصة لـ"خلق اتفاق بين كل الدول الرئيسة في العالم، بضمنها الدول المسلمة، ضد الإرهاب الثوري الإسلامي"، اختارت إدارة بوش، بدلاً من ذلك، اتباع سياسات شقت الدول الغربية، نفرت إلى حد بعيد العالم الإسلامي وعرضت أمريكا نفسها وبدرجة عظيمة إلى خطر متزايد.

ستكون من الحماقة محاولة تلخيص تفاصيل كتاب مدون ببراعة، وتم التحقق من مواضيعه بطريقة شاملة مثل كتاب ليفين. لكن في موضوع حيوي وثيق الصلة بالحاضر، فإنه يستحق إيجاز الأفكار الرئيسة الجديرة بالتقدير. بعد أن يستعرض ما يسميه (العقيدة الأمريكية)، يمحص ليفين الجذور التاريخية لنقيضتها (وطنية جريحة تواقة إلى الانتقام) فهي تتضمن ضغائن غير عقلانية، بل حتى مخاوف من العالم الخارجي ممزوجة باعتقاد تسلطي بغدر (النخبة) الأمريكية والمفكرين، إنها أفكار ليست فقط تدميرية في الداخل، وإنما تحاول الحط من الأفكار التقليدية بأن الشعوب لديها رسالة لمساعدة الأمم الأخرى. يقتبس ليفين على سبيل المثال كلمات ودرو ويلسون في نهاية الحرب العالمية الأولى: "لدى أمريكا الميزة التي لا تنضب بتحقيق قدرها وإنقاذ العالم". من سخريات الأقدار أن الطبيعة نفسها، متمثلة بكارثة تسونامي الآسيوية، هي التي برهنت مرة أخرى على أن الولايات المتحدة فقط هي التي تملك الإرادة والموارد (السفن الحاملة لطائرات الهليكوبتر والشبكات اللوجستية العالمية) للاستجابة مباشرة لمثل هذه الكوارث الطارئة الضخمة. هل يمكن أن تساعد هذه التجربة الرهيبة على إنعاش سمعة الأمريكان كشعب ذي رسالة رحيمة للعالم؟ لقد تم تشويه فكرة الرسالة إلى حد بعيد.يجادل ليفين بأن العقيدة الثنوية، تم الاستشهاد بها كثيراً منذ ١١ أيلول، فهي تمثل الصراع بين أمريكا الخيرة (والذين يساندونها بلا أي تحفظات) والشر. لقد عبر جورج بوش عن هذه العقيدة في خطابه للطلاب المتخرجين في الكلية العسكرية في حزيران ٢٠٠٢ بقوله: "إن العلم الأمريكي اينما حملناه فإنه سوف يكون رمزاً ليس فقط لقوتنا ولكن لحريتنا". يدعم مثل هذا الخطاب الاعتقاد بأننا أفضل من الآخرين هو مما يزيد من التشدد القومي، ولكنه كذلك يصرف الانتباه عن التدابير الأساسية التي تحتاجها الولايات المتحدة لشن حملة ناجحة ضد (الإرهاب الإسلامي)، بما في ذلك السعي من أجل السلام في الشرق الأوسط، كما إن هذه البلاغة الخطابية قد وترت العلاقات مع العالم الخارجي على نحو خطر. يقول الكاتب: "إذا كان لدينا أي إدراك للتاريخ على الإطلاق، فلابد أن ندرك ان نظامنا لا يمثل (نهاية التاريخ) هو ليس منشأ بموجب الإرادة الإلهية، وإنه لن يستمر إلى الأبد".يفحص الفصل المعنون (قلب الوطن المرير) التناقض الظاهري بين رؤية أجزاء كبيرة من المجتمع البشري للتاريخ الأمريكي الحديث "تاريخ متسلسل زمنياً من النجاحات المتواصلة تقريباً"، على نحو ما يقول السناتور وليم فولبرايت) وما تراه مجموعات كبيرة جداً داخل البلد نفسه التي تنفي وجود أي شيء من هذا القبيل. إحساس هذه الجماعات بالهزيمة الموروثة والخزي لا يسم فقط السياسات الداخلية، ولكنه أيضاً عنصر مهم في التقليد القومي الأمريكي المتطرف. يشير ليفين إلى أن المصدر الأصلي لهذا الشعور هو مخاوف المستوطنين الأصوليين البروتستانت الانغلو - سكسانيون الأوائل، الذين شعروا بأنهم بدأوا يفقدون السيطرة على السياسة والثقافة في بلادهم إلى المجموعات المهاجرة حديثا من (النخب المتحررة من الأحقاد القومية والدينية) وامثالهم.

لقد أعطت الثورات المتباينة في الستينيات بالتأكيد (من نحو الثورة الجنسية والعرقية والمساواتية والسلوكية) زخماً قوياً إلى استياء هذه المجموعات الكبيرة. في عصرنا الحاضر، ثمة ما يسمى بـ(ثورة كنكرتيش)، وهو دعوة لـ (استرداد أمريكا). ونيوتن كنكرتيش هو عضو مجلس النواب عن الحزب الجمهوري وقد قاد الحزب عام ١٩٩٤ في حملته الانتخابية للكونغرس، وهو يعتبر المدافع الرئيس عن الحركة الشعبية لليمين الجديد. يقتبس ليفين من شارل مورا، الفرنسي الرجعي المتطرف، قوله خلال الثلاثينيات، كمثال لهذا النمط من التفكير، "لكي تحب فرنسا اليوم، فإن من الضروري أن تبغض ما آلت إليه". لقد انتج الغرور والعقبات الاقتصادية والاستياء ثقافة محافظة ومتدينة بدرجة حادة وهي ثقافة قومية بالحدة نفسها أيضاً.

يلاحظ ليفين أن القومية الأمريكية المتطرفة، خلافاً لحركات مماثلة في أماكن أخرى، لم تظهر اندفاعاً واضحاً للتحرك باتجاه الحكم الشمولي حتى اليوم. لقد كان الاعتداء بالدستورية الديمقراطية التقليدية وقوة الثقافة الديمقراطية يكبح دائماً أية نزعات نحو الدكتاتورية مرة بعد أخرى، إذ سيتم كبح آلهة القومية الأمريكية المتطرفة، آجلاً أو عاجلاً، بقوة العقيدة الأمريكية. لقد أعقبت فترات القومية الحادة عودة إلى توازن أكثر تسامحاً وتعددية.

يكتب ليفين أن أمريكا قد تمثل انتصار المجتمع الحديث بكل أشكاله من وجهة نظر العالم، ولكنها "موطن القوى الدينية المحافظة الأكبر عدداً والأكثر نفوذاً في العالم المتقدم"، وهو يستشهد باستفتاء أجري في عام ٢٠٠٠ وجد إن البروتستانت التبشيريين من البيض يكونون ٢٣,٣٪ من السكان، بينما يشكل الكاثوليك، أكبر المجموعات المسيحية ٢٧,٣٪. بالتأكيد إن الرقم الأول هو، اليوم، أكبر بكثير. يجادل ليفين بأن المعتقدات التبشيرية الأصولية هي أفكار نشأت قبل عصر التنوير أصلاً، وهي معادية للأفكار التنويرية في جوهرها. هذه الأوساط تعد العلوم الحديثة والأسس العقلانية للخطاب الإنسان أفكاراً مشبوهة بدرجة خطرة، وتنظر إلى الذين يعتنقون الأفكار التنويرية بحيوية مفعمة، كالليبراليين الخونة في الساحل الشرقي والنخب المفكرة والأوروبيين الملحدين والأمم المتحدة الكافرة وآخرين، على إنهم من الأنذال وبدرجة استثنائية.

يلاحظ ليفين إن كان هنالك استهزاء عام. من الأفكار الأصولية في أثناء محاكمة سكوبز عام ١٩٢٥ اكتسب كثيراً من الشهرة (سكوبز هو مدرس للأحياء تمت محاكمته لتدريسه نظرية داروين في النشوء والتطور: المترجم). لقد حول الأصوليون الإذلال الذي عانوه إلى استعادة لمراكزهم السابقة وبقوة بدءاً من التسعينيات، فتدريس قصة الخليقة التوراتية أصبح الآن جزءاً من المناهج الدراسية في مدارس أكثر من أربعين ولاية. ومما يزيد من النفوذ السياسي للأصوليين هو الإقبال الضئيل على التصويت من المجموعات الأخرى غير لقد ابدى الرئيس نفسه شكوكه علناً في الاكتشافات العلمية في حقول عدة بضمنها الاحتباس الحراري وبحوث الخلايا الجذعية وقد تعهد بتخليص العالم من الشرور، وكما قال بوب ودورد فإن "ما يطرحه بوش هو رؤياه الذاتية لنفسه ولوطنه كجزء من الرؤيا الجليلة الإجمالية للإرادة الربانية"، وهكذا، تستغل بدهاء القومية الدينية المتطرفة من قبل واضعي استراتيجية إدارة بوش لكي تصبح قوة مهمة في السياسة الأمريكية.

أما الفصل عن القضية الإسرائيلية - الفلسطينية في كتاب ليفين سيكون باعثاً للكثير من الاعتراضات لصراحته الاستثنائية، فهو يعتقد إن هذه القضية، أكثر من أي قضية أخرى، تفرق الولايات المتحدة عن الرأي السائد في معظم البلدان الأخرى. إن المناقشات الانتقادية لسجل إسرائيل وتصرفاتها تجاه الفلسطينيين تقدم كأنها تهجم من أطراف الجماعة الدولية الحاقدة المعادية لأمريكا والمعادية للسامية ممثلة بالأمم المتحدة المكروهة ومثل هذا العرض يقوي التأييد غير المتحفظ لإسرائيل الذي يظهره معظم التبشيريين، غير عابئين بالسياسات والأعمال الإسرائيلية في الأراضي المحتلة.لقد أصبحت وجهة النظر هذه بمثابة مسألة عقائدية دينية للأصوليين. يستشهد ليفين بجيري فالويل (القس فالويل مؤسس منظمة الأغلبية الفاضلة اليمينية والتي تدعو إلى سياسات تتطابق مع المسيحية: المترجم) عندما قال: "أن يتخذ موقفاً ضد إسرائيل هو بمثابة موقف ضد الله". يقود حركة الصهاينة المسيحيين في واشنطن توم ديلاي، قائد الأغلبية في مجلس النواب، وهم كتلة من الجمهوريين المحافظين الذين ينطلق تأييدهم الشديد للدولة اليهودية من تفسيرهم للكتاب المقدس. مثل هذه الاعتقادات التي تستخف بالقانون الدولي والحقوق المعترف بها بصورة عامة (الخطاب العقلاني أو المفاوضات الجدية) ينسجم بصورة ملائمة مع نوعية أفكار المحافظين الجدد الذي يمكن أن تجده في وثيقة (التغير الكامل) الصادرة عام ١٩٩٦ التي كتبها ريتشارد بيرل ودوغلاس فيث وآخرون والتي أصبحت شهيرة الآن. تنصح الوثيقة حكومة الليكود بالإصرار على (السيطرة الدائمة على الأراضي المحتلة). وكما يعبر ليفين، فإنهم بهذا لا يشجعون المعتدلين من العرب والمسلمين. لقد أخبر ديلاي الهيئة التشريعية الإسرائيلية في اثناء زيارته لإسرائيل عام ٢٠٠٣ بأنه (إسرائيلي من الأعماق)، وقد علق صائب عريقات، المشرع والمفاوض الفلسطيني وبلطف، بأن ديلاي لا يساعد قضية السلام بـ(كونه أكثر إسرائيلية من الإسرائيليين أنفسهم). يلاحظ ليفين أن النقاش حول القضية الإسرائيلية - الفلسطينية هو أكثر صراحة وانفتاحاً في إسرائيل نفسها مقارنة بالولايات المتحدة، حيث يعتبر نقد سياسات الليكود أو الجدال بأن الفلسطينيين لديهم براهين مقنعة جديرة بالاعتبار (معاداة تقليدية للسامية). يستشهد ليفين، على سبيل المثال، بالاحتجاج المفعم بالعواطف ضد سياسات الليكود من قبل افراهام بيرك رئيس الكنيست السابق، إذ يقول: "نحن لا نستطيع أن نلزم أغلبية الفلسطينيين بالبقاء تحت الأقدام الإسرائيلية ونعتقد في الوقت نفسه بأننا الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط". لعلها واحدة من المآسي العظيمة في التاريخ أنه خلال سنوات القيادات والسياسات الإسرائيلية المعتدلة لم يتم الاعتراف بشريك مفاوض فلسطيني جاد من قبل كل من إسرائيل والولايات المتحدة. تم استبعاد (منظمة التحرير الفلسطينية) الممثل المنظم للشعب الفلسطيني عن طاولة المفاوضات حتى عام ١٩٩٣، في وقت كان قد تم ترسيخ جذور كل من حركة الاستيطان الإسرائيلي والإرهاب المحلي الفلسطيني في الأراضي المحتلة وإلى درجة بعيدة. إن نقد التصرفات الإسرائيلية هو ليس، بأي حال من الأحوال، تبريراً للبربرية والوحشية للبعض من أعدائهم الفلسطينيين، إضافة إلى ذلك، فإن سياسات إسرائيل الاستيطانية ألغت فرص إنهاء الظروف التي تزيد في تفاقم الصراع، وكذلك ما تقوم به المجموعات الفلسطينية من خلال سعيها المستمر للإرهاب.

لقد أصبحت الولايات المتحدة متورطة على نحو خطر في الشرق الأوسط من خلال الجمع بين المساندة القوية غير المشروطة لإسرائيل والاعتماد على النفط العربي، مما يخلق مشاكل رئيسة لقيادتها للعالم، إضافة إلى وضع عقبات خطرة في مسعاها الناجح لـ(الحرب على الإرهاب). يبدو الآن أن هنالك من المظاهر مما يدل على تحسن فرص السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين، ونظراً للأهمية الجوهرية لهذه القضية، إضافة إلى تأثيراتها على القضايا الأخرى، فإنه يأمل إن واشنطن سوف تتبنى سياسات نشيطة وجريئة وموضوعية، سياسات يمكن أن تحقق تقدماً ذا معنى نحو حل سلمي يحتاجه الإسرائيليون والفلسطينيون وبشدة الإسرائيليون والفلسطينيون، معاً وبشدة.إن كتاب ليفين كتاب قيم وهو مزعج في الوقت نفسه، فهو يتناول موضوعاً عصيباً وبطرق متباينة، قد يختلف المؤرخون في تفسير ليفين للتاريخ الأمريكي أو تقديره لأهمية هذا العامل أو ذاك، ويمكن ان يختلف آخرون بصورة أكيدة مع بعض فصول الكتاب، ولكن كما هو متوقع فإنه قد صنف منذ الآن ككتاب معاد لأمريكا ومعاد للسامية.يبدي ليفين اهتماماً، بل تنتابه الهواجس في بعض الأحيان، بالأزمات الحاضرة: الحرب في العراق والطريق المسدود للسلام في الشرق الأوسط، إضافة إلى ظهور النزعات القومية المتطرفة التي تبدو له كأنها تعرض للخطر (العقيدة الأمريكية) والزعامة الأمريكية للعالم، ولكنه قلق أيضاً على غياب المناقشات الجماهيرية حول هذه المواضيع. يمكن ان تكون كتاباته تعوزها اللباقة، ربما، ولكن ذلك يكاد يطلق عليه معاداة لأمريكا.يكتب جيمس بوكان في كتابه الحديث عن حركة التنوير الاسكوتلندية، واصفاً أدنبرة في مطلع القرن الثامن عشر: "بدأ الرجال والناس يستفيقون وهم يخامرهم الشعور بان المعرفة المكتسبة عبر المنهج التشكيكي يمكن أن تكون ذات فائدة أكبر في هذا العالم الأرضي من المعرفة (المستوحاة) من الكتاب المقدس" إنها فكرة مؤلمة بأن الولايات المتحدة في القرن الحادي والعشرين يمكن أن ترفض عالم الفكر التنويري الذي ألهم الآباء المؤسسين (أعضاء المؤتمر الفيدرالي عام ١٧٨٧ الذين كتبوا الدستور الأمريكي)، فمن دون كل الأفكار الاستفزازية في كتاب ليفين، تبدو هذه الفكرة هي الأكثر إثارة للقلق لأمريكا والعالم، لأن الحرية الدينية والانتخابات الشعبية، وكلاهما من المقدسات الاساسية إلى حد بعيد بالنسبة للشعب الأمريكي، هي فكرة مرهفة بصورة واضحة. هل من الممكن أن تصوت أمريكا تصوت مستقبلاً للتخلي عن الأفكار التنويرية؟

البروتستانت التبشيريون هم مجموعة كبيرة ومتنامية، ومما يعزز نفوذهم. هو انضباطهم في أثناء الانتخابات مقارنة بالمجموعات الأخرى. يظهر تأثيرهم الواضح في كل من اللغة البلاغية وفي بعض أعمال الإدارة الحالية إضافة إلى الكونغرس. يتوضح خطابهم البلاغي في الإشارة إلى: الخير والشر المطلقين الإرادة الآلهية وربطها بمغامرات مثل حرب العراق، الاعتقاد بأن هؤلاء الذين ليسوا معنا هم بالضرورة ضدنا. تفرض مثل هذه الطروحات صرامة ترفض النقد وتجعل من المستحيل الاعتراف بالهزائم علناً أو تتقبل تعديل السياسات الخاطئة، تلك الاتجاهات هي مصدر خطر جدي لبلد قوي ومهم مثل الولايات المتحدة. يضاف إلى ذلك أنه في السياسات الداخلية يتم تحويل النخب إلى شياطين ويخلق عداء للمفكرين وخصاماً مع الخطاب المنطقي ومقتاً شديداً للمناهج العلمية، كل هذا يمكن أن يفسد ويخفض مكانة النظام التعليمي في وقت يتم تحدي الزعامة الأمريكية والتفوق التكنولوجي أكثر من أي وقت مضى.يمتد تأثير المسيحين التبشيريين الآن إلى العديد من القضايا الجوهرية في السياسة الخارجية بمعزل تماماً عن قضايا الشرق الأوسط، فنتيجة لتأثيراتهم برزت التصرفات الأحادية الجانب: الدوغمائية والقومية المتطرفة، وإهمال القانون الدولي، وبصورة خاصة العداء للمنظمات الدولية. تصور بعض أدبيات هؤلاء الأمين العام للأمم المتحدة عدواً للمسيح، في زمن لم تعد الولايات المتحدة محصنة من شرور العالم الخاري، فإن العديد من المشاكل الجوهرية (الإرهاب، الطاقة، البيئة، الأوبئة بضمنها الايدز، انتشار الأسلحة النووية وأسلحة الدمار الشامل الأخرى على سبيل المثال) لا يمكن معالجتها بطريقة مجدية إلا عبر الجهود الدولية المشتركة. سوف تكون الدوغمائية وإنكار حقائق الحياة كارثية لزعامة الولايات المتحدة وللأمل في إيجاد حلول للمشاكل التي يمكن أن تقرر مستقبل الجنس البشري على هذا الكوكب.

إن الحق المطلق للأفراد في اختيار الدين الذي يؤمنون به هو ليس موضعاً للتساؤل، ولكن عندما تفرض طائفة معينة معتقداتها الخاصة ومحرماتها على المصلحة العامة والسياسات الوطنية في القضايا غير الدينية، فنكون قد وصلنا إلى مرحلة خطرة، ولهذا السبب فإن فصل الدولة عن الكنيسة هو أمر في غاية الأهمية.

يشرع ليفين بمهمة عسيرة وهي محاولة تحليل القوى الدينية والأيديولوجيات القومية التي تستحوذ على تأثيرات مهمة في المواقف الحالية للولايات المتحدة. يوضح في رد على أحد منتقديه إن الفشل في تذكر العبر المنسية عن كيفية تورط أمريكا في فيتنام يبدو "أنه متمثل بطريقة كبيرة بالعجز عن إعادة تمحيص بعض الخرافات القومية الأساسية. لكي تقول ذلك فإنها ليست وجهة نظر أجنبي متغطرس، إنها جزء من التقليد الفكري النقدي الأمريكي الرفيع. الذي يجب أن تعاد إليه الحياة كشأن الفكر العقلاني العميق، بل في الواقع كضرورة وطنية ملحة".

يثير النقد من قبل الأجانب حول المواضيع الوطنية الحساسة دائماً حفيظة الناس، وبصورة خاصة عندما يكون للقراء مشاعر قوية بأن بعض هذه الانتقادات أصابت عين الحقيقة. لا يرغب الناس اعتيادياً بإخبارهم، بلكنة غريبة، وقد يتجهون إلى حافة الهاوية.

ينساق ليفين في بعض الأحيان إلى التحدث، بنبرة تحذيرية مكثفة، قد يجد بعض القراء أنها متعالية، ولكن استنتاجاته ابعد من أن تكون إبداء لمشاعر معادية للأمريكان، ففيها منظور تحذيري يجب أن يدرك الأمريكان مغزاه بصورة جدية، يقول: "القضية الأكثر أهمية من أي شيء أنه يجب على النخب الأمريكية أن تكون لديها ثقة أكبر واهتماماً أكثر بما ترمز إليه بلادهم للعالم عبر مؤسساتها، قيمها والرفاهية الواضحة للأمريكيين العاديين. هذه المؤسسات والقيم تشكل السلطة المتحضرة لأمريكا وريثة روما. وتماماً مثل قيم روما، فإنها سوف تبقى طويلاً بعد الإمبراطورية الأمريكية، بل حتى بعد زوال الولايات المتحدة نفسها. لقد كانت صورة أمريكا كديمقراطية تعددية ناجحة اقتصادياً، مفتوحة لكل الأجناس، مسالمة وغير عدوانة بدرجة أساسية، لقد كانت هذه الصورة قوية في الماضي لأنها، وإلى درجة كبيرة، صورة صحيحة، وعلى الأمريكان التأكد من استمرار صحة هذه الصورة.

*هذا النص هو الترجمة العربية لمقالة بريان أوركوهارت المنشورة في الدورية الأمريكية

The New York Review of Books

في عدد ٢٤ شباط الماضي.

قراءة في كتاب صادر حديثاً عن دار (المدى)

(الحرب المقدسة: الجهاد، الحرب الصليبية) العنف والدين في المسيحية والإسلام

ابراهيم حاج عبدي

شهد تاريخ الديانتين المسيحية والإسلام، حروبا وغزوات كثيرة، راح ضحيتها الآلاف، لكن اللافت في هذه المجازر والمآسي التي وقعت في بدايات ظهور الإسلام ومن ثم في ما عرف بـ "الحروب الصليبية" في العصور الوسطى، هو أن ثمة توجها تكرس تدريجيا، كان ينحو باتجاه إضفاء طابع القداسة على الحروب، بحيث تبدو هذه الأخيرة وكأنها مهمة إلهية، وواجب ديني لابد من تأديته بمعزل عن الأهوال التي تخلفها.

ولعل نظرة سريعة إلى التفجيرات الانتحارية التي تقع الآن في مختلف بقاع الأرض ومنها العراق بشكل خاص، تؤكد مثل هذه الرؤية، فالمنتحر يكون قد تعرض لعملية غسل دماغ منهجية تقوده دون تفكير إلى ارتكاب ابشع الجرائم باسم الإسلام، وفي اعتقاده انه حين يفجر سيارة مفخخة في مجموعات، هي كافرة في نظره، ستكون الجنة، ولاشك، من نصيبه، إنه يمارس "عنفا مقدسا" ودمويا.

هذا التاريخ المعقد والشائك للدين المسيحي والإسلامي، وكيف أضفى منظرو هاتين الديانتين، أصحاب المصالح الدنيوية، طابع القداسة على الحروب، والعنف، هو ما يتناوله كتاب (الحرب المقدسة:الجهاد، الحرب الصليبية) الصادر أخيرا عن دار المدى بدمشق بالتعاون مع مؤسسة التحديث الفكري، في محاولة من مؤلفه جان فلوري تتبع مسار هذه المسألة، مسألة القداسة، وكيف أنها برزت في مراحل تاريخية معينة احتاج فيها القساوسة والأئمة ورجال السياسة إلى خلعها على الحروب، وذلك لتحقيق أهداف ومكاسب دنيوية، بحيث استخدم الدين لأغراض بعيدة عن جوهرها المتسامح، ومبادئها السامية، ولا يغفل الباحث، في سياق عرضه التاريخي ومعالجته الموثقة، عن عقد مقارنات قيمة بين القداسة التي أضفيت على الحروب في الدين الإسلامي، ومثيلتها في الدين المسيحي، إذ ثمة تباينات كثيرة سواء في النص أو في الممارسة العملية.

فعلى امتداد التاريخ البشري، لاسيما مع ظهور المسيحية ومن بعدها الإسلام، سعت السلطات السياسية إلى تكريس مفاهيم ومقولات وآراء تدعم مواقفها، وممارساتها العملية على رأس هرم السلطة، والأكثر من ذلك تبحث في النص المقدس عن ذريعة تبرر حروبها، وهي لم تدخر جهدا في استقطاب أهل الفكر والعلم، بالترغيب حينا والترهيب أحيانا ليشرع لها ما تقوم به من أعمال، وتسوغ لها تجاوزاتها وخروقاتها، وبهذا المعنى نشأ "حلف وثيق" و"غير مقدس" بين السلطتين السياسية الوضعية من جهة والدينية السماوية من جهة ثانية، الأولى تسعى إلى كسب ود المفكرين، وعلماء الدين بالعطايا، والمنح، والمناصب، وهؤلاء . بدورهم . يسعون إلى تبرير أفعال السلطة السياسية لغايات شخصية دنيوية أو لقناعات يرون فيها الحقيقة المطلقة، ولم تزل هذه المعادلة قائمة، وتتمتع بالفعالية والتأثير، وإلا كيف نفسر الانفجارات الانتحارية اليومية في مختلف بقاع الأرض، فالإنسان بطبعه أناني، وهو حين يضحي بروحه فلا شك انه، يعلل النفس بالأوهام، ويطمع في ثواب كبير يتمثل هنا في "جنات الخلد".

وحين دعا البابا أوربانوس الثاني في نهاية القرن التاسع إلى الحرب الصليبية، فهو أقر، ودون لبس، بحملة مقدسة فرضت على الفرسان المسيحيين تكفيرا عن ذنوبهم، وأعدت لاستردادهم عنوة قبر المسيح المقدس في أورشليم عقب سقوطه بأربعة قرون ونصف تحت سلطة المسلمين الذين بدورهم كانوا يخوضون الحروب كواجب مقدس تحت مسمى "الجهاد"، والكتاب من ثم، ومن خلال وقائع تاريخية معروفة، يسعى إلى ان يصف أفكار هاتين الديانتين، وذهنياتهما، ومواقفهما من الحرب، ونشأة فكرة "الحرب المقدسة" في الغرب، وتفاعل هذه الفكرة مع الفكرة التي تجابهها وتعادلها في الإسلام ألا وهي "الجهاد". ويلاحظ الباحث أن هذه القداسة التي ظهرت في الحرب الصليبية جاءت نتيجة تطور، وتغير جذري جرى خلال ألف عام، فالمعروف ان المسيح كان رسول محبة وسلام، وهو الذي قال "لا تقاوم الشرير، بل من لطمك على خدك الأيمن، قدم له الآخر أيضا"، وهو موقف رافض للعنف تماما كما هو واضح، وكذلك أحل يسوع المسيح شريعة الحب الشامل الذي يزيل التخوم والصراعات السياسية منها أو الاجتماعية أو العرقية: "سمعتم أنه قيل، أحبب قريبك وابغض عدوك. أما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم، وباركوا لاعنيكم، وأحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل من يضطهدونكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات"، وثمة أمثلة أخرى كثيرة تدل على النزوع الإنساني المتسامح للديانة المسيحية غير ان فكرة "الحرب المقدسة" ظهرت فيما بعد بقرون، ونتيجة صراعات كثيرة وكان القديس اوغسطين(٣٥٤ . ٤٣٠) على سبيل المثال، قد حدد أسسا لهذه الحرب، ومنها: لابد أن تكون أهدافها نقية ومطابقة للحق، بمعنى، تردع عدوا، تستعيد أراضي سلبت عنوة...ويجب شنها بمحبة وبمعزل عن الشعور بالحقد، ودون دوافع لمصالح شخصية...وينبغي ان تكون عامة لا خاصة، أي تعلنها السلطة الشرعية أي في الحالة هذه الدولة الرومانية (الإمبراطور).

أما في الإسلام وبرغم كون الجهاد ليس من بين أركان الإسلام الخمسة المعروفة، بيد ان الباحث يحاجج في إمكان العثور على بواكيره، أي منذ عصر النبي، ويرى الباحث أنه وعلى خلاف الدين المسيحي الأولي، فليس للإسلام في واقع الأمر، ومنذ البداية، أي تحفظ حيال العمل الحربي، فلا يدينه وحي القرآن، ولا التصرف الحقيقي لمؤسس الإسلام محمد (ص) الذي لم يرفض وسيلة العنف المسلح وحسب، بل قد مارسها هو بذاته بصفته زعيم القوات المسلحة، وقد نادى بها في العديد من الظروف، ولا يتسم موقفه من الحرب بأي أمر مدهش في المجتمع الذي ولد فيه حيث كانت الحرب الخاصة عملا مقبولا، والغزوات التي نظمها مناهضا أعداءه المكيين ظلت غزوات عادية ومشرفة.

وبعد أن يورد الباحث مجموعة من الأمثلة، والوقائع يستنتج ان محمد على نقيض يسوع لا يقيم أي تمييز ما بين العمل الديني والعمل السياسي أو العسكري فهو، في آن واحد، نبي، وقائد حربي ورئيس دولة أو اقله قائد جماعة، وهذا الانصهار الكلي لمضماري السياسة والدين يصد كل اعتراض أخلاقي على فعل القتل في سبيل الله، غير ان الوحي القرآني يقول "لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغي"، لكن جميع نصوص الوحي لا تعطي الصورة نفسها عن مفهوم الجهاد، فبعض الآيات تبدو ملتزمة بالسلم وأخرى هي اكثر نزعة للحرب.

ويرى الباحث ان فكرة الحرب المقدسة، لكي تلقى الإعراب الكامل عنها، بقيت تحتاج من الجهة المسيحية إلى اقتران هذين العاملين: مستوى كاف لرفع قيمة الحرب ولقد سنتها، وحالة من التوتر السياسي . العسكري من شأنه ان يخلق صدمة انفعالية تتيح لهذه القدسنة ان تتعاظم فتعرب عن ذاتها في الأفعال وفي الكتابات معا.

من جهة أخرى كان الأمر كذلك بالنسبة للجهاد مع بروز فارق وهو أن هذه القدسنة للحرب قد تم اكتسابها منذ زمن بعيد في ديار الإسلام أي منذ فجر الإسلام، فلم تكن تحتاج، كما كان الحال في المسيحية، إلى ثورة عقائدية بغية تبني هذه القدسنة، فلم يطرأ عليها سوى تعديلات ضئيلة مرتبطة بتعريف الجهاد، وهذا الأمر حدا الكاتب للتركيز على الدين المسيحي بشكل خاص، حتى أفضى الأمر بالفكرتين إلى تلاقيهما بالقسط الأعظم من جوانبهما وسماتهما، والجهاد مثل الحرب المقدسة بدوره يحتاج، كيما يزدهر، إلى بعد انفعالي سيكولوجي وهو عنصر مصادفاتي تخلقه الظروف التاريخية أحيانا إبان فترات التوتر.

يرصد الباحث وقائع كثيرة من تاريخ الديانتين، ويشرح الظروف التي قام فيها محمد بغزواته ثم يتناول الفتوحات العربية الإسلامية وخصوصا في أسبانيا، وظهور ردود الأفعال والحروب التي قامت هناك، وقبل ذلك وفي أثنائه يتتبع مواقف الكنيسة والكيفية التي سارت عليها لشرعنة وقدسنة العنف والحروب، ولاسيما الحروب الصليبية، ويركز في آرائه على الأمثلة والاستشهادات، سواء من النصوص المقدسة أو عبر التفسيرات المختلفة التي ظهرت في مختلف المراحل، وهو يبذل جهدا كبيرا في شرح فكرة الحرب المقدسة ويستفيض في الحديث عن تلك الحروب التي كانت ترتدي لباس الدين ويدفعها التعصب إلى إلغاء الآخر، عبر حمولة أيديولوجية ومرجعية دينية كانت الأصوات والأقلام من الطرفين تقوم بتغذيتها وإثارتها، فالكتاب يناقش مسألة على جانب كبير من التعقيد ومن الحساسية، وهو موضوع إشكالي يحتاج إلى مزيد من الدراسات والأبحاث.